‘Yandoto Academic Journal of Arabic Language and Literature
ISSN: 2714-4712 (Print & Open Access)

لامية نانا أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي في رثاء صديقتها عائشة

إعداد

سليمان محمد بلّو

المقدمة:

الأدب ظاهرة اجتماعية، تتأثر بغيرها من الظواهر الأخري، وذلك كالحياة الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وكان للأدب دور فعال في تثقيف حياة كل أمة، لهذا كان أدب كل أمة مرآة صادقة لحياتها، تصور ما لها وما عليها بصورة واضحة المعالم لما وقع في حياتها من الجوانب المتعددة، وعلى هذا كان الأدب يختلف من عصر إلى عصر ومن حين إلى حين، حيث يسجل مظاهر التقدم والتطور في كل عصر من العصور الأدبية. وقد لعب الشعر دورا كبيرا في تخليد ما وقع في الأمم الماضية، يقوم الشاعر بتصوير عواطفه ومشاعره الخاصة والعامة عن طريق وضع القصائد الهامة، وكان للنسوة دور فعال في شأن الشعر إذ أن الشعراء منذ العصر الجاهلي يحتكمون إلى النساء للنظر في جودة القصيدة ورداءتها وخير شاهد على ذلك ما جرى بين امرئ القيس وعلقمة الفحل لما كان ضيفا لامرئ القيس فقال كل واحد منهما لصاحبه أنا أشعر منك فتحاكما إلي أم جندب زوج امرئ القيس فأنشد كل واحد قصيدته يصف الخيل على روي واحد، وقافية واحدة، وبعد الانتهاء حكمت بينهما قائلة لزوجها علقمة أشعر منك قال وكيف ؟ قالت لأنك زجرت فرسك وحركته بساقك وضربته بسوطك، وأنه جاء هذا الصيد ثم أدركه ثانيا من عنانه. وكان النساء يشاركن الرجال في قرض القصائد كما حدث بين حسان بن ثابت والخنساء في قبة النابغة بسوق عكاظ فأنشدت الخنساء قصيدتها في رثاء صخر فقال لها النابغة "لولا أن أبا بصير أنشدني قبلك لقلت إنك أشعر الإنس والجن، وعلى هذا واصلن السير في مشاركة الرجال والتفاعل معهم في كل ناحية من النواحى المتعددة المقبولة عرفا، شارك النساء الرجال أيضا في عصر صدر الإسلام حيث لعبن دورا كبيرا في انتشار الإسلام ورفع رايته كأم عطية والخنساء وأم سليم وغيرهن ممن أبلين بلاء حسنا حتى في ساحة المعارك.

ويدرك مما سبق ذكره أن للنساء سهمات متعددة في مجالات الدين، إذ أنهن شقائق الرجال تعمل كما يعمل وتقرأ كما يقرأ وتفهم كما يفهم، وقد ساهم النساء في خلافة الدولة العثمانية المؤسسة في القرن التاسع عشر الميلادي على يد زعيمها الأول، المجاهد الكبير في هذه الناحية الشيخ عثمان بن فودي رحمه الله، كما كان له بنات ساهمن في رسوخ هذه الدولة، أمثال الخديجة الكبرى التي هاجرت معه من طغل، لها قدم راسخ في اللغة العربية ولها منشورات أيضا باللغة الفلانية، وقد ساعدته كثيرا في الدعوة والإرشاد، وما زلن على هذا الدرب في مواجهة الأمور الاتي تلائق بهن في الإسلام، ومن هنا أراد الباحث أن يركز

اهتمامه في إبراز إنتاجات الشاعرة الأديبة العالمة الربانية نانا أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي وذلك بتحليل قصيدتها اللامية في رثاء صديقتها عائشة لما فيها من كنوز زاخرة في اللغة العربية.

سيركز الباحث في المقالة – بعد المقدمة – على النقاط التالية

١- نبذة مختصرة عن الشاعرة نانا أسماء بنت الشيخ عثمان.

٢- مفهوم الرثاء

٣- عرض القصيدة.

٤- بناء القصيدة.

٥- الموسيقى.

٦- الخاتمة.

٧- الهوامش والمراجع.

نبذة مختصرة عن الشاعرة نانا أسماء بنت الشيخ عثمان:

أسماء بنت الشيخ عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد غُورْطُ بن جب بن محمد ثنب بن ماسران بن أيوب بن بوب بابا بن موسى جكل[١].

ذكر الدكتور الوزير جنيد بن محمد البخاري في كتابه عرف الريحان فقال: "ومن أولاد الشيخ عثمان بن فودي أسماء الولية الصالحة الزاهدة العابدة العالمة التقية الواعظة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتحث الناس على اتباع الشريعة الإسلامية واقتفاء السنة وإيصال الرحم والأخلاق الجميلة وكانت حافظة لكتاب الله صابرة على أذى الناس"[٢]. وقد ذكرها أبوبكر الغسوي في سلسلة أولاد الشيخ عثمان بن فودي قائلا: "ومن أنحب أولاده الإناث نانا أسماء العالمة راوية فقيهة أديبة صاحبة العبارات الجميلة والإشارات السنية فاقت النساء في زمانها وهي معدودة من جنس العلماء المشهورين المبررين في القرن الثالث عشر الهجري رحمها الله"[٣].

ولدت الشاعرة أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي مع أخيها ألحسن بقرية طغل عام ١٢٠٨هـ الموافق ١٧٩٢م أواخر القرن الثامن عشر الميلادي في صكتو، تزوجها غداد بن ليم وهو صديق أخيها أمير المؤمنين محمد بلو ووزيره في خلافة صكتو، وكانت في صكتو منذ الثانية عشرة من عمرها إلى أن توفيت، وكانت الشاعرة مثالا للنساء العفيفات، امتازت من سائر أخواتها حيث أنها هوسوية فلانية عربية لأنها تجيد اللغات الثلاث قراءة وكتابة[٤].

ترعرعت الشاعرة عند والديها الكريمين، حيث تربيت تربية إسلامية وتثقفت بثقافة عربية إسلامية، أخذت العلوم العربية والإسلامية على يد والديها حيث عكفت على القراءة والمطالعة، ولم تزل مع الوالدين حتى نهلت منهما العلوم على اختلاف فنونها ولازمتهما حتى تمكنت في الدراسات الإسلامية وتبحرت في اللغة العربية وعلومها، ولما توفيت أمها ميمونة تحولت تربيتها إلى ضرة أمها عائشة زوج الشيخ عثمان بن فودي، اعتنت بها وأحسنت تربيتها خير تحسين فنشأت ذات صفات جميلة وأخلاق حميدة، حامدة الشمائل، ومنها تلقت الشاعر مبادئ التدبير المنزلي من صنع الطعام وما يتعلق بشأن البيت[٥].

تلقت الشاعرة المبادئ العربية والإسلامية على يد والدها كما هو معروف في منطقة بلاد السودان الغربي، حيث كان الوالد يشغل الأولاد بتعلم القرآن الكريم أولا، اختتمت القرآن الكريم ولم تتجاوز سن العاشر من عمرها، كما حفظته عن ظهر قلبها، ثم شرعت في دراسة التوحيد والفقه والتفسير وعلوم القرآن والحديث وأصوله والمنطق، ودرست اللغة العربية بفنونها من نحو وصرف وأدب وهذا مما مكنتها في اللغة العربية حتى قرضت أشعارا، وتمسكت بالقرآن الكريم حتى ألفت كتابا في خصائص سور القرآن الكريم باللغة الفلانية[٦].

وكانت الشاعر أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي في الشعر في نيجيريا بمنزلة خنساء بين العرب، ولقد نظمت قصائد في الرثاء والمدح والوعظ[٧]، وذكرها الدكتور علي أبوبكر في معرض حديثه قائلا: "ولأسماء مقالتان ألفتهما، إحداهما "تنبيه الغافلين" تحتوي على مواعظ مما يجب فعله وما يحرم تركه، بينما الثانية في خصائص القرآن، ولئن دلت تلك المقالتان على شيء فإنما تدل على أن المرأة المسلمة في نيجيريا كانت ولا تزال تأخذ نصيبا وافرا في مجال العلم"[٨].

توفيت الشاعرة وهي بنت اثنتين وسبعين سنة، عام ألف ومائتين وثمانين، وكانت لها ستة أبناء[٩].

مفهوم الرثاء:

تفيد كلمة الرثاء في اللغة على البكاء بالميت وهي في الأصل مصدر للفعل "رثى"فهي من باب ضرب يضرب يقال: "رثيت الميت رثياً ورِثاءً ومرثاةً ومرثية"[١٠]. وتدل كلمة "رثى" أيضا في أصلها اللغوي على التوجع والإشفاق[١١]. ويقول ابن فارس: بأن "الراء والثاء والحرف المعتل أُصَيْلٌ على رِقّة وإشفاق، يقال رثَيْتُ لفُلان: رقَقتُ. ومن الباب قولُهم رَثَى الميّت بشعرٍ، ومن العرب من يقول: رَثَأْت، وليس بالأصل"[١٢].

وكذالك الرثاء في اللغة يعني: بكاء الميت وتعدد محاسنه. يقول ابن منظور:"رَثى فلان فلاناً يَرْثِيهِ رَثْياً ومَرْثِيَةً إذا بكاهُ بعد مَوته.فإن مدَحَه بعد موته قيل رثَّاهُ يُرَثِّيه تَرْثِيةً. ورَثَيْت الميّتَ رَثْياً ورِثاءً ومَرْثاةً

ومَرْثِيةً ورَثَّيْته: مَدَحْته بعد الموت وبَكَيْته. ورثَوْت الميّت أَيضاً إذا بكَيْته وعدَّدت محاسنه، وكذلك إذا نظَمْت فيه شعراً "[١٣].

وقيل "رثى الميت رثيا ورثاء ورثاية ومرثاة ومرثية بكاه بعد موته وعدد محاسنه، ويقال رثاه بقصيدة ورثاه بكلمة، وله رحمة ورق له، "رثاه" مدحه بعد موته، "المرثاة" ما يرثى به الميت من شعر وغيره"[١٤].

أما الرثاء في الاصطلاح فهو: تعداد خصال الميت بما كان يتصف به من صفات كالكرم والشجاعة والعفة والعدل والعقل، وتصوير ما يترك فقده من أثر في القلوب من أسى وحسرة وفزع....[١٥].

وذهب قدامة ابن جعفر في كتابه "نقد الشعر" إلى أن الرثاء ليس له فرق بالمديح، إلا في ذكر الألفاظ التي تدل على أن الممدوح هالك، مثل كان، وتوفى، وقضى نحبه، وما أشبه ذلك، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه[١٦].

بينما ذكر الدكتور أحمد أحمد البدوي الفرق بين الرثاء والتأبين فقال: إن التأبين هو الثناء على الشخص بعد موته، أما الرثاء فبكاء الميت، وتعديد محاسنه، ونظم الشعر فيه[١٧].وليس بين الرثاء والمدح فرق، إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل" كان" أو "عدمنا به كيت وكيت" وما يشاكل هذا وليعلم أنه ميت[١٨] وعلى هذا فإن باب الرثاء باب فسيح الرحاب والنوادي، فصيح اللسان في إجابة المنادي ذي القلب الصادي، متباين الأسلوب، مختلف الأطراف متباعد الشعوب، منه ما يصم القلوب بنباله، ومنه ما يسليها بلطيف مقاله، ومنه مايبعثها على الأسف، زمنه مايصرفها عن موارد التلف، وقد أكثروا الشعراء القول في هذا الباب[١٩].

عرض القصيدة:

القصيدة لامية القافية صاغها الشاعرة على بحر الطويل، الذي يتردد تفاعيله على ما يلي:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

قرضتها الشاعرة ترثى فقيدتها وصديقتها عائشة بنت عمر ألكم زوجة أمير المؤمنين محمد بلو رحمهم الله، لتظهر ما تعانيه من الحزن والقلق تجاه المفقودة، وردت القصيدة في كتاب عرف الريحان للوزير جنيد بن محمد البخاري رحمه الله، وتتضمن على ستة عشر بيتا، افتتحتها الشاعرة بمطلع حزين حيث لم تقف على الديار الدارثة ولم تبدأ بالحمد لله سبحانه وتعالى، ولا الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، فاستهلت القصيدة استهلالا عجيبا حيث لم تقلد القدامى في افتتاح القصيدة من الوقوف والبكاء على أصحابها كعادة الشعراء القدامى، وذلك لما أصاب مجتمعها من المصيبة والزلزال لفقد المرثي لها التي كانت معروفة بصفات الحميدة من العلم والتقوى، والصلاح والعفاف والإنفاق في سبيل الله، فدخلت توا في

القصيدة.

كانت الشاعرة نانا أسماء بنت الشيخ تتمتع بملكة شعرية رفيعة وأسلوب رفيع، وإليكم نص القصيدة:

إلى الله أشكو من صنوف البلابل** غدت في سويداء لقلبي داخل
لفقد شيوخ قادة الدين سادة ** وأخوتنا أخدان خير ونائل
وذكرني موت الحبيبة من مضى ** من الأخوات الصالحات العقائل
من الصالحات القانتات لربهم ** من الحافظات الغيب ذات النوافل
فزادت همومي وانفرادي ووحشتي ** وسكب دموعي فوق خدي هواطل
لفقدي لعائشة الكريمة يالها ** من امراة حازت صنوف الفضائل
من الذكر والصدقات ثم تلاوة ** وذب لمظلوم وحمل المثاقل
كفيلة أيتام غياث أرامـــــل ** وعمدة حي بالحبا والتواصل
توحشت من فقدي لها وهي صفوتي ** وموضع سري من عصور أوائل
ولا عجب فالحب فينا مورث ** من أشياخنا من قبل ليس بزائل
جزاها إله العرش بالعفو والرضى ** وتوسيع قبر في ضياء مواصل
وأمنها يوم القيامة كل ما ** يخاف بذاك اليوم من كل هائل
وأسكنها في جنة مع شيخنا ** ووالدها مع زوجها في المنازل
ويحفظ من تركت من النسل كله ** شرار الأعادي من عدو وصائل
صلاة وتسليم على خير من سعى ** يبلغ من ربي جميع الرسائل
مع الآل والأصحاب والتابعين من ** أيمتنا ما صاخ أذن لقائل

الشرح:

افتتحت الشاعرة القصيدة برفع شكواها إلى الله سبحانه وتعالى وذلك لتفريج ما أصابها من الحزن والهم لفقد صديقتها وزوج أخيها أمير المؤمنين محمد بلو عائشة بنت عمر ألكم، تناولت فيها الشاعرة غرضا من أغراض الشعر وهو الرثاء للعالمة المشهورة كما سبق ذكرها، حيث رثتها من البيت الأول إلى الأخير مظهرة مشاعرها وأحاسيسها لدى المفقودة، كان الشعراء يسيرون على نفس الدرب التقليدي في رثائهم كما كانوا يسيرون في مدحهم، يذكرون الموت وغدره ويذمون الدنيا وغرورها، فهي دار فناء ولايصفو فيها العيش، ولا يرتاح فيها البال، والرثاء في القرن التاسع عشر الميلادي أكثر ورودا من المدح فقلما تجد عالما

أو أميرا إلا رثاه الشعراء، وكانت الظاهرة موجودة عند كل شاعر مشهور أمثال عبد الله بن فودي وأمير المؤمنين محمد بلو وأخوه محمد البخاري والشاعرة نانا أسماء وغيرهم، يشير الشعراء في الرثاء إلى محاسن الميت، يصفونه بالعلم والتقوى، وبالكرم والشجاعة، ومساعدة الضعفاء وغير ذلك من الأوصاف التي يستحسنونها[٢٠]. وقد أحسنت الشاعرة في القصيدة حيث ذكرت أخلاق صديقتها المفقودة من العلم والحياء والعفة وصلة الرحم وتلاوة القرآن الكلايم والذكر ومساعدة المحتاجين من الفقراء واليتامى وغير ذلك من صنوف المعروف، لذلك سال الدموع من عين الشاعرة كما يسيل البحر الماء عند فيضانه وسيلانه، وهذا تفكرا بفقد الصديقة الكريمة التي توفيت وليس هذا بعدم الاستسلام بما قضاه سبحانه وتعالى بل المصيبة إذا نزلت تهيج مشاعر الأحباء،وهذا ما جعل الشاعرة تسيل الدموع لما كانت تذكره من الخيرات الجمة لصديقتها، وخلاصة القول تهدف المرثية إلى إبراز ما قامت به العالمة الشهيرة عائشة بنت عمر ألكم من بث الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، ونشر العلم والعمل به والتقى والأمر بالمعروف والنهي عن الرذائل، وغير ذلك، ويمكن تقسيم أفكار الشاعرة حسب ما يلي:

الندب:

بكاء النفس حالة الاحتضار حيث يذكر الشاعر ما أصاب عشيرته من المصائب، وهو كالرثاء في ذكر الأخلاق الحميدة للميت، وبكاء الأهل والأقارب والعشيرة حين وقعت الموت، استهلت الشاعرة قصيدتها بهذا العنصر، حيث دخلت فيه تترفع شكواها وعظم ما أصابها من البلاء وفقد الصديقة إلى الله المولى عز وجل فقالت في مطلع القصيدة:

إلى الله أشكو من صنوف البلابل غدت في سويداء لقلبي داخل
لفقد شيوخ قادة الدين سادة وأخوتنا أخدان خير ونائل
وذكرني موت الحبيبة من مضى من الأخوات الصالحات العقائل
من الصالحات القانتات لربهم من الحافظات الغيب ذات النوافل

استهلت الشاعرة في القصيدة بارتفاع شأنها إلى المولى عز وجل، وذلك لما أصبحت به من النبأ العظيم، حيث رأت نفسها في ظلمة شديدة وتحير كبير، لأجل وفاة صديقتها وأمينة سرها، عائشة بنت عمر، وكانت تساعدها في نشر العلم والثقافة العربية، وكانت أيضا شريكتها وزميلاتها في طلب العلم، زيادة على ذلك أصبحت زوج أخيها أمير المؤمنين محمد بلو، حيث وجدت التمكن في العلوم الإسلامية والدراسات العربية، ويعتبر أن الشاعرة أجادت وأحسنت حيث بدأت بالجار والمجرور في الكلام وهو: "إلى الله" وذلك لعناية الشاعرة به ولمعرفتها بأنه يحط ويغفر ويعفو عما أصاب الإنسان، اختصته بذكر أولا لأنها تعلم علما

يقينا أن الله هو الكاشف والمفرج عن كل ما نزل، وهذا التقديميختص بدلالة الألفاظ على المعاني السامية ويدل على أسلوب قوي ومتين، وهذا أبلغ في أذن السامع والقارئ، لأن اللفظ جسد والمعني روح وإنما ننظر إليها بعين القلب فلا ينبغي أن نقدما ما كان مؤخرا كما لا يحسن في الكلام أن نؤخر ما كان مقدما، أفسدت الصورة وغيرت المعنومن هنا شرعت تذكر من مضى من الأخبة والأخوات الصالحات العابدات القانتات.

التأبين:

وهو الثناء على الشخص المرثى له بعد موته، وذكر محاسنه معتعداد الخصال المحمودة[٢١] التي اتصفت بها صديقتها المفقودة، وهو ارتفاع لشأن العزيزة التي لها منزلة في عشيرتها، حيث تعبر الشاعرة عن أحاسيسها ومشاعر قومها من الحزن والبكاء والندم على المفقودة، ويلمس هذا المعنى في قول الشاعرة:

فزادت همومي وانفرادي ووحشتي وسكب دموعي فوق خدي هواطل
لفقدي لعائشة الكريمة يالها من امراة حازت صنوف الفضائل
من الذكر والصدقات ثم تلاوة وذب لمظلوم وحمل المثاقل
كفيلة أيتام غياث أرامـــــل وعمدة حي بالحبا والتواصل
توحشت من فقدي لها وهي صفوتي وموضع سري من عصور أوائل

افتتحت الشاعرة الأبيات بذكر ما يعتلج في صدرها من الهموم والوحشة والغربة لفقد صديقتها التقية العابدة الورعة، ولم تزل الدموع تفيض على خد الشاعرة لما كانت تتفكر عنه في موت حبيبتها وزوج أخيها الأكبر محمد بلو، بل أتت الشاعرة بالبيت التالي إجابة لسؤال مقدر، فكأن السائل سألها لماذا تفيصين الدموع ؟ فأجابت بقولها لفقد صديقتي التي تسمى بعائشة وذلك لما حازته من أنواع الفضائل، فشرعت تذكر الأخلاق التي اتصفت بها المتوفي من الذكر والصدقة وتلاوة القرآن والعفو عن المظلوم وكانت أيضا كفيلة أيتام وغير ذلك من الصفات الخيرية التي تعتنقها المرثى لها، وصفت الشاعرة المتوفى بصفات لم تكن تجدها إلا عند عالم تقي ورع وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنها عالمة بالشريعة الإسلامية وكانت تمثل وتعمل بمعظم ما عرفته، والوصف لائق بمقامه إذ أن القارئ يدرك المغزى من هذا الوصف وهذا ما يقصد به النقاد: "أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى، حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه"[٢٢]. وكان الوصف إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الصفات والأحوال والأشكال، وهو أبلغ من التشبيه إذ أنه إخبار عن حقيقية الشيء، اختارت الشاعرة الألفاظ التي تشير إلى مقصودها وبيان حال المفقودة حيث استعملت ألفاظا مطابقا للمعنى المراد أمثال "الذكر" و "تلاوة القرآن" و "حمل المثاقل" وكان بعض الصفات المذكورة من الصفات التي مدحت السيدة خديجة بنت خويلد الرسول صلى الله حيث أتاه جيريل عليه السلام بسورة ورجع إلى

البيت فقلبه ترتجف مما رأى في الغار تفوهت قائلة: " كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق"[٢٣] ولم لا يحزن عشرية عائشة بنت عمر ألكم بموتها لأنها تمثل وتحاكي الصفات الخيرية التي اتصفت بها الرسول صلى الله عليه وسلم.

التعزي:

وأما النقطة الأخيرة فهي عبارة عن التعزي، حيث ختمت الشاعرة الأبيات التالية بالدعاء لصديقتها المفقودة سائلة أن يسقيها رب العزة غيوث العفو والرحمة، وأن يجعل الجنة الفردوس مثواها فقالت:

جزاها إله العرش بالعفو والرضى وتوسيع قبر في ضياء مواصل
وأمنها يوم القيامة كل ما يخاف بذاك اليوم من كل هائل
وأسكنها في جنة مع شيخنا ووالدها مع زوجها في المنازل
ويحفظ من تركت من النسل كله شرار الأعادي من عدو وصائل
صلاة وتسليم على خير من سعى يبلغ من ربي جميع الرسائل
مع الآل والأصحاب والتابعين من أيمتنا ما صاخ أذن لقائل

ختمت الشاعرة الأبيات بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى، أن يعفو عنها، ويوسع قبرها وأن يجعل قبرها في نور وضياء متواصل غير منقطع، ويؤمنها من خوف وزلزلات القيامة لأنها يوم يفر المرء من أخيها، وذلك لما فيه من المصائب والويلات والنكبات، وأن يسقيها الكوثر وغير ذلك مما دعا الله سبحانه وتعالى، عبرت الشاعرة في هذه النقطة الأخيرة بألفاظ تحمل المصاب على الصبر والتوكل وإرجاع الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يكن لها ألفاظ مخصوصة بل عبرت بمثل "العفو" و "الرضى" و "توسيع القبر" و "ظل العرش" وغير ذلك، ويعد أن الشاعرة أحسنت حيث اختارت ألفاظا دالة على المقصود وهذا ما يشير إليه ابن رشيق القيرواني في قوله: "اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه"[٢٤].

الموسيقى:

تتبع الباحث ظاهرة الموسيقى التي هي إحدى الظواهر الشعرية، فوجد أنها تتجزأ إلى جزأين وهما: الداخلية والخارجية، أما الداخلية فمرتبطة بظواهر التكرار والجناس والطباق والتصريع والمقابلة وغيرها مما كانوا يدرسونه تحت الموسيقى الداخلية.

حدث التكرار في القصيدة حيث كررت الشاعرة كلمة "الصالحات" في االبيتين بلفظ واحد ومعنى واحدة، في قولها:

وذكرني موت الحبيبة من مضى من الأخوات الصالحات العقائل
من الصالحات القانتات لربهم من الحافظات الغيب ذات النوافل

كرر الشاعرة كلمة "الصالحات" أكثر من مرة وذلك لتوكيد تذكرها بالصالحات المؤمنات الاتي توفيت، وهذا ما كان يعتلج في صدرها لمعرفة لهن من الأخلاق الحميدة وفي هذا يقول ابن الأثير: "واعلم أن المفيد من التكرار يأتي في الكلام تأكيدا له وتشيدا من أمره، وإنما يفعل ذلك لدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامه إما مبالغة في العشق أو المدح أو غير ذلك"[٢٥].

ومما كررته الشاعرة في قصيدة قولها:

ويحفظ من تركت من النسل كله شرار الأعادي من عدو وصائل

كررت الشاعرة كلمة "العدو" أكثر من مرة وذلك تشيدا وتعظيما لشأن الأعداء، لأنها تدعوا للمرثي لها ولذريتها، فكانت بحاجة إلى تكرار الكلمة في الدعاء لأنها محل يتطلب التكرار والإلحاح، وكان من طبيعة الشعراء تكرار الكلمة لبيان أهميتها كما ذكر ابن فارس في كتابه الصاحبي في قفه اللغة وسر العربية قائلا: "وسنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر"[٢٦].

ومما أحسنت فيه الشاعرة تكرار الحرف في البيت أكثر من مرتين وذلك لما ينطوي تحته من وقع رنان في مسامع القراء والسامعين، حيث قالت في البيت التالي:

وأمنها يوم القيامة كل ما يخاف بذاك اليوم من كل هائل

كررت الشاعرة حرف الميم في البيت لأنه حرف مجهور ومتوسط بين الشفتين، وكان بحاجة إلى ارتفاع صوت الداعي، حيث يذكر الناس بأهمية الدعاء للمتوفي وهي الفريدة النافعة التي تأتيه في القبر، وكانت المتوفي بحاجة ماسة إلى الدعاء، بعد أن ذكرت الشاعرة الخصال المحمودة للمتوفي.

ومما أجادت الشاعرة فيه الإتيان بظاهرة التصريع يقول ابن لأثير: وهو "في الشعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنثور وفائدته في الشعر أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تعلم قافيتها وشبه البيت المصرع بباب له مصراعان متشاكلان، وقد فعل ذلك القدماء والمحدثون وفيه دلالة على سعة القدرة في أفانين الكلام"[٢٧].

ومثال التصريع في القصيدة قول الشاعرة:

إلى الله أشكو من صنوف البلابل غدت في سويداء لقلبي داخل

الموسيقى الخارجية فتنحصر في الوزن والقافية، وكان للوزن قيمة عالية في تجسيد مشاعر الشاعر وأحاسيسه لما له من إيقاع رنان وخاصة البحر التي تنتمي إليه القصيدة، وكان بحر الطويل يتسع

لكثير من المعاني، يصلح للفخر والحماسة والرثاء والوصف وغير ذلك مما ذكره النقاد، وعلى هذا ذكر علي الجندي في كتابه الشعر وإنشاد الشعر قائلا: "فالشاعر الطاعن في السن، والشاعر الضعيف الجسم، والشاعر الخفيض الصوت، والشاعر المريض بأمراض الصدر وغيرها، يعجزهم أن ينشدوا القصائد من البحر الطويل، وذلك لطوله الذي يجعله أشبه بالخطبة، حتى ليحتاج المنشد به أن يلتقط أنفاسه عقب كل بيت"[٢٨].

وقد ذكر النقاد السر في اختيار الشاعر بحر الطويل في الرثاء، لأنه من البحور الطويلة التي تتيح للشاعر الفرصة في ترتيب مشاعره وحبه وشوقه تجاه المرثى لها وعلى هذا المنوال ذكر الدكتور محمود قائلا: "نستطيع ونحن مطمئنون أن نقدر أن الشاعر فى حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفس عن حزنه وجزعه[٢٩]". وذكر الدكتور إبراهيم أنيس معللا استعمال الشاعر الأوزان الطويلة في شعر الرثاء قائلا: "أما تلك المراثي الطويلة فأغلب الظن أنها نظمت بعد أن هدأت ثورة الفزع، واستكانت النفوس باليأس والهم المستمر"[٣٠]. وتتمثل تفاعيل هذا البحر عند عملية التقطيع حسب ما يلي:

إ لـالا/هأشكو من/ صنوفل/بلابلي غدت في / سويدائن / لقلب/ يداخلو

فعولن /مفاعيلن /فعولن / مفاعلن فعولن / مفاعيلن / فعول/ مفاعلن

يدرك في البيت السابق، أن القبض وقع فيه، وهو "حذف الخامس من التفعلة متى كان ساكنا وثاني سبب"[٣١]. في تفعلة "مفاعيلن" و "فعولن" حيث حذف الياء من التفعلة الأولي فصارت "مفاعلن" والنون في التفعلة الثانية فصارت "فعول" وهذا جائز في الشعر العربي.

وأما القافية فقد حازت من الاهتمام ما حازه الوزن، بل اعتبرها النقاد القدامى الركن الثاني في الشعر بعد الوزن، اختارت الشاعرة حرف "اللام" وهو من الحروف التي تصلح أن تكون رويا للقصيدة كما ذكر النقاد، إذ أن الحرف سهل في التناول، جميل في الجرس، لذيذ في النغم له وقع وتأثير في مسامع القراء، إضافة إلى ذلك أنه من الحرف التي أجاد النقاد في استعمالها.

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم، تناول الباحث في المقالة نبذة مختصرة عن حياة الشاعرة نانا أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي، من حيث نسبها وولادتها ونشأتها وتعلمها ووفاتها، ومن ثم واصل الباحث في ذكر مفهوم الرثاء لغة واصطلاحا، ومن هنا انطلق إلى عرض القصيدة ومع

شرحها شرحا أدبيا، وذلك قسم الباحث فكرة القصيدة إلى الندب، والتأبين، والتعزية، وأخيرا تحدث الباحث في المقالة عن الموسيقى بنوعيها الداخلية والخارجية، ثم الخاتمة وقائمة الهوامش والمراجع.

وتوصل الباحث من خلال ذلك إلى النتائج التالية:

- إن للشاعرة قدم راسخ في اللغة العربية.
- تشير القصيدة إلى أن الرثاء فن متدوال في عصر بني فودي.
- للنساء دور فعال في نشر الثقافة العربية والدرسات الإسلامية.
- تتسم القصيدة بالموسقى المطردة الجذابة الرانانة التي تحرك مشاعر السامعين والقارئين.

الهوامش والمراجع:

١ – أمير المؤمنين، محمد بلو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرار، طبع عام ١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م، ص: ٢١٠.

٢ – الوزير، جنيد بن محمد البخاري، الدكتور، عرف في التبرك بذكر الشيخ عثمان بن فودي، مخطوط يوجد نسخة مصورة في مكتبة الباحث، ص: ٥١-٥٢.

٣ – الغسوي، أبوبكر محمد سودنغي، مختصر حياة الشيخ عثمان بن فودي ووزراءه، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ الموافق ٢٠١٢م، ص: ١٥٦-١٥٧.

٤ – سمبو ولي جنيد، البروفيسور، فن المديح في مدينة صكتو بناؤه وأسلوبه من ١٨٠٤م – ١٩٦٠م، دار الأمة لوكالة المطبوعات، ص: ١٢٩.

٥ – محمد الرابع أول سعاد، الدكتور، أسماء بنت عثمان بن فوديو وإنتاجاتها العربية، بدون المطبعة، بتصرف من الباحث، ص: ٣١- ٣٢.

٦ – المرجع السابق، ص: ٣٢- ٣٣.

٧ – سمبو ولي جنيد، فن المديح في مدينة صكتو مرجع سابق، ص: ١٢٩.

٨ – علي أبوبكر، الدكتور، الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠ إلى ١٩٦٠ عام الإستقلال، الطبعة الثانية، دار الأمة للطبع والنشر والتوزيع، ص: ٣٣٢.

٩ – الوزير، جنيد، عرف الريحان، مرجع سابق، ص: ٢١.

١٠ – ابن منظور، محمد بن مكوم، لسان العرب، الجزء الرابع عشر، الطبعة الأولى، دار صادر يروت، صفحة ٣٠٨.

١١ – مقبول علي بشير النعمة، المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام، صفحة ١٣.

١٢ – أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثاني، طبعة دار الفكر الموافق ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، صفحة ٤٨٨.

١٣ – ابن منظور، مرجع سابق، والصفحة نفسها.

١٤ – إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، نشر دار الدعوة، تحقيق مجمع اللغة العربية، ص: ٣٢٩.

١٥ – الأستاذ الدكتور، كريم الوائلي، الشعر الجاهلي، قضاياه وظواهره الفنية، الجزء الأول، ص: ١٧١.

١٦ – أبو الفرج، قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق وتعليق، محمد عبد المنعم الحفاجي، الدكتور، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص: ١١٨.

١٧ – بدوي، أحمد أحمد، الدكتور، أسس النقد عند العرب، طبعة دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص: ٢٢٤.

١٨ – القزويني، أبو الحسن، علي بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت لبنان، الطبعة الرابعة، الموافق ١٩٧٢م ص: ١٥٩.

١٩ – النويري، شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الخامس، ص: ١٦١.

٢٠ – غلادنثي، شيخو أحمد سعيد، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، من سنة ١٨٠٤ إلى ١٩٦٦م، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٣م، ص: ١١٢.

٢١ – بدوي، أسس النقد، مرجع سابق، ص: ٢٢٤.

٢٢ – ابن قدامة، نقد الشعر، مرجع سابق،

٢٣ – ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الجزء الأول، ص: ٣٨.

٢٤ – ابن الأثير، نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، الجزء الثاني، تحقيق: محمد ٢٥ – محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، ص: ١٤٧

٢٦ – ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسر العربية،

٢٧ – ابن الأثير، المثل السائر، مصدر سابق، الجزء الأو، ص: ٢٣٧.

٢٨ – علي الجندي، الشعر وإنشاد الشعر، دار المعارف مصر، ص: ١٠٠.

٢٩ – محمود توفيق محمد، المنهج إلى التذوق البلاغي للقصيدة العربية، المكتبة الشاملة الإصدار الثالث، بلا مطبعة ولا تاريخ، ص: ١١٥– ١١٦.

٣٠ – إبراهيم أنيس، الدكتور، موسيقى الشعر، مرجع سابق، ص: ١٧٦.

٣١ – الهاشمي، أحمد السيد، ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، بلا مطبعة ولا تاريخ، ص: ٢١.